

حول معانى السنة و الحديث

السيد خلدون الاحدب

حماة - سوريا

ان السنة النبوية بيان القرآن الكريم و مفتاح ابوابه ، ففي السنة بيان الشريعة، و تفصيل مجمل القرآن الكريم ، و توضيح سببهم ، و ازالة التشابه فى متشابهه الذى اراد الله أن يبينه للناس.

فهي و القرآن متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر، كما لا ينفصل المبين عن موضوع البيان، ولا المفصل عن موضوع الاجمال، ولا الجزئى عن الكلى. فالقرآن كلى هذه الشريعة و السنة سبينة جزئياتها(١).

و بين الله عزوجل هذا فى كتابه الكريم فقال : ”و أنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم و لعلم يتفكرون“،(٢) و قال : ”وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لم الذى اختلفوا فيه و هدى و رحمة لقوم يؤمنون“،(٣).

فبين القرآن لنا فى هاتين الايتين وفى آيات كثيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وظيفته البيان لكتاب الله ، أو بعبارة أخرى أن موقع الحديث النبوى من القرآن هو موقع المبين من المبين . و هذا البيان ليس قاصرا على مجرد التفسير بل له اوجه عديدة تجعل العمل بالقرآن فى اركان أبنيته العظيمة مفتقرا الى السنة لا يستغنى عنها(٤).

و يروى الخطيب البغدادي فى كتابه ”الكفاية فى علم الرواية“،(٥) أن عمران بن حصين رضى الله عنه كان جالسا و معه أصحابه ، فقال رجل من القوم :

لا تحدثونا الا بالقرآن، قال فقال له : أدنه، فدنا، فقال : أرأيت لو وكمت أنت و أصحابك الى القرآن أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعاً و صلاة العصر أربعاً و المغرب ثلاثاً تقرأ في اثنتين . أرأيت لو وكمت أنت و أصحابك الى القرآن أكنت تجد الطواف بالبيت سبعا ، و الطواف بالصفاء و المروة . ثم قال : ”أى قوم خذوا عنا ، فانكم والله : أن لا تفعلوا لتضن ،، و كنت سأتكلم عن معانى السنة و الحديث و الاختلاف بينهما ، و عن مكانة السنة فى التشريع الاسلامى ، الا أنى أوجل هذا الموضوع لمقالة ثانية .

والآن ماهى السنة ، وهل هى ما نطلق عليه اسم الحديث ، و هل مفهوم السنة تغير من عصر الى عصر، و ما هو وجه اللقاء الافتراق بين السنة و الحديث . السنة عند علماء اللغة :

السنة فى اللغة: هى السيرة و الطريقة المعتادة حسنة كانت أو قبيحة (٦) و منه قوله تعالى ”سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا، ولا تجد لسنةنا تحويلاً (٧) و منه قوله — ص — (من سن فى الاسلام سنة حسنة فله اجرها و اجر من عمل بها بعد من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، و من سن فى الاسلام سنة سيئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء (٨) و منه أيضا قوله — ص — ”المتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر و ذراعا بذراع (٩) و منه قول خالد بن عتبة الهذلى :

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها

و كل من ابتدأ أمرا عمل به قوم بعده ، قيل هو الذى سنه و منه قول

نصيب :

كأنى سنتت الحب أول عاشق من الناس اذ أحبيت من بينهم وحدى (١٠)

العديث فى اللغة:

الحديث فى اللغة : هو الجديد من الأشياء ، وهو ضد القديم ، ويستعمل فى اللغة أيضا حقيقة فى الخبر (١١).

ومعنى الاخبار فى وصف الحديث كان معروفا للعرب فى الجاهلية منذ كانوا يطلقون على أياسهم المشهورة اسم الاحاديث. (١٢)
ولعل الامام اللغوى يحيى بن زياد الديلمى المعروف بالفراء ، قد تنبه الى هذا المعنى حين رأى أن "واحد الاحاديث أحدثه، ثم جعلوه جمعا للحديث ، وفيه أنهم لم يقولوا،، أحدثه النبي". (١٣)

و من هنا شاع على الالسنه "صار أحدثه،، أو "صار حديثا،، اذ ضرب به المثل، واستعمل الشاعر أبو كلدة فى بيت واحد المثل و الاحدوثة كأنما يشير الى ترادفهما فقال :

و لا تصبحوا أحدثه مثل قائل به يضرب الامثال من يتمثل (١٤)
ويقول العلامة الشيخ جمال الدين القاسمى رحمه الله فى كتابه "قواعد التحديث" (١٥)
ما نصه : "و فى الكشاف الاحاديث اسم جمع ، وسنه حديث النبي،، وفى البحر :
"ليس الاحاديث باسم جمع بل هو جمع تكسير لحديث على غير القياس كأباطيل ،
واسم الجمع لم يأت على هذا الوزن ، و انما سميت هذه الكلمات و العبارات أحاديث
كما قال الله تعالى : "فليأتوا بحديث مثله،، (١٦) "لان الكلمات انما تتركب من
الحروف المتعاقبة المتوالية ، كل واحد من تلك الحروف يحدث عقيب صاحبه ، أو
لأن سماعها يحدث فى القلوب من العلوم و المعانى....." وقد استشعر بعض
العلماء فى مادة الحديث معنى الجدة ، فاطلقوه على ما يقابل القديم كما أسلفنا و هم
يريدون بالقديم كتاب الله ، و بالجديد ما أضيف الى رسول الله - ص - و يقول الامام

السيوطي في كتابه "تدريب الراوي" ، (١٧) وقال شيخ الاسلام ابن حجر في شرح البخاري : المراد بالحديث عرف الشرع "ما يضاف الى النبي -ص- ، ، كانه أريد به مقالة القرآن لانه قديم .

و هذا يفسر لنا - : الى حد كبير - تورع كثير من العلماء من اطلاق اسم الحديث على كتاب الله ، و استبدالهم "كلام الله" ، بحديث الله . وفي سنن ابن ماجه رواية لحديث نبوي تكاد تقطع بضرورة هذا الورع . و هذا الأدب في التعبير : عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله -ص- قال : إنما اثنتان اللام و الهدى . فاحسن الكلام كلام الله و أحسن الهدى هدى محمد (صلى الله عليه و سلم) ، ، . و اذا وجدنا في جل كتب السنن " أن أحسن الحديث كتاب الله" ، ثم لاحظنا تفرد ابن ماجه برواية "أحسن الكلام" ، أدركنا أنه ليس بمستبعد أن يكون الورع محله على ايثار هذا التعبير ، و كان أقل ما نستنبطه من ذلك أن في العلماء من تخرج من اطلاق اسم الحديث على كتاب الله القديم .

و النبي -ص- سمي بنفسه قوله "حديثا" ، و كاد بهذه التسمية يميز ما أضيف اليه عما عداه ، حتى كانه وضع الأصول لما اصطلحوا فيما بعد على تسمية بالحديث . جاء أبوهريرة يسأله عن أسعد الناس بشفاعته يوم القيامة ، فكان جوابه -ص- "أنه علم أن لن يسأله عن هذا الحديث أحد قبل أبي هريرة لحرصه على طلب الحديث" ، (١٨) هذا هو تعريف السنة و الحديث عند اللغويين فما هو تعريفهما عند المحققين ، و قبل أن نشرع في هذا لا بد من القول : أن العلماء استعملوا كلمة السنة منذ عصر الرسول (صلى الله عليه و سلم) استعمالا أخص من الاستعمال اللغوي ، و لم يطلقوا استعمالها اللغوي على ما كان عليه عند العرب بل قصرها الطريقة فيها و السيرة على طريقة الرسول (صلى الله عليه و سلم) و سيرته فيما يتعلق بشئون الدين و الاخلاق ، فطريقته

(صلى الله عليه وسلم) أو سيرته هي سنته التي أمر الناس باتباعها في إطار الدين لا المعنى اللغوي العام: ”الطريقة والسيره حسنة كانت أو سيئة“.

و هذا الاطلاق هو المفهوم من كلمة السنة في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) و لهذا نجده (صلى الله عليه وسلم) يقول: ”تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله و سنة نبيه“، (١٩) و هناك ألفاظ مرادفة للسنة وردت في القرآن الكريم و كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل ”السبيل“، كقوله تعالى (من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى و يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى“، (٢٠).

و ”الصراط المستقيم“، كقوله تعالى و انك لتهدى الى صراط مستقيم، صراط الله (٢١) و ”الأسوة الحسنة“، كقوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة“، (٢٢)

أما فى السنة ، فعن سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : خط رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خطا بيده ثم قال هذا سبيل الله مستقيما ”ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط و عن شماله ثم قال ”و هذا السبيل ليس منها سبيل الا عليه شيطان يدعو اليه ”ثم قرأ هذا الآية ، و أن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه“، الآية (٢٣) و كل هذا يفيد معنى الطريقة السلوكية و معنى الاتباع ، و هذا يعنى أن الطريق الذى سلكه النبى - ص - و أصحابه و المؤمنون هو السنة ، و هو السبيل ، و هو الصراط المستقيم (٢٤) و يقول العلامة السيد سليمان الندوى ما نصه : ”و هذا المفهوم هو الذى وضع له امام أهل السنة مالك رحمه الله و أجزل له المتربه ما نصه : ”و هذا المفهوم هو الذى وضع له امام أهل السنة ما لك رحمه الله كلمة (الموطأ) و سمي به مجموعة رواياته ، و معنى الموطأ فى اللغة العربية : الطريق الممهّد الذى واطأ الناس كثيرا فكانه يعنى به الطريق الذى سهده و وطأه النبى - ص - و أصحابه الكرام و هو

طريق الاسلام و التفسير الصحيح للقرآن،، (٢٥) و يذكر الشاطبي في كتابه "الاعتصام"، (٢٦) عن عبد الرحمن بن سهدى أن الامام مالك بن أنس سئل عن السنة، فقال : هي ما لا اسم له غير السنة وتلاه "وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبيل فترق بكم عن سبيله (٢٧) "أقول : و نص الامام الشاطبي رحمه الله يؤيد المعنى الذى ذهب اليه العلامة الندوى رح وسوف نذكر ما يؤيد هذا، بيد أن تسمية بالموطأ انما صير اليه لان علماء المدينة واطنوه و وافقوه عليه . يقول الامام مالك : "عرضت كتابي هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة فكلهم واطأنى عليه فسميته الموطأ"، (٢٨).

و لعل مذهب الامام مالك باعتبار عمل أهل المدينة حجة عنده ، بل انه يقدم عمل أهل المدينة على حديث الأُحاد (٢٩) لا يغرب عنا في فهم هذا المعنى الذى أرادته العلامة الكبير الندوى رحمه الله و هو فهم جد دقيق . بعد هذا نقول :

أن السنة باصطلاح المحدثين هي : "كل ما أثر عن الرسول - ص - من قول أو فعل ، أو تقرير ، أو صفة خلقية أو خلقية ، أو سيرة سوا" أكان ذلك قبل البعثة كتحنثه في غار حراء ، ام بعدها ،، (٣٠).

و من الضروري أن ننبه هنا، أن معنى السنة يختلف معناها في اصطلاح المشترعين حسب اختلاف اختصاصاتهم و أغراضهم ، فهمي عند الاصوليين غيرها عند المحدثين و الفقهاء و يظهر مدلول معناها من خلال أبحاثهم ، يقول أستاذنا الدكتور محمد عجاج الخطيب :

١ - فعلماء الحديث : انما بحثوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الامام الهادى ، و الرائد الناصح ، الذى أخبر الله عزوجل عنه أنه أسوة لنا و قدوة ، فنقلوا كل

ما يتصل به من سيرة و خلق ، و شمائل ، و أخبار ، و أقوال ، و أفعال ، سوا*
أثبت المنقول حكما شرعيا أم لا .

٢ - و علماء الاصول : انما بحثوا عن رسول الله - (صلى الله عليه وسلم) من حيث
انه مشرع للناس دستور الحياة ، و يضع القواعد للمجتهدين من بعده ، و لذلك
اعتنى الاصوليون باقواله ، و أفعاله و تقريراته التي تثبت الاحكام و تقررها .

٣ - و علماء الفقه : انما بحثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى تدل أفعاله
على حكم شرعى و هم يبحثون عن حكم الشرع فى أفعال العباد و جوبا أو حرمة ،
أو اباحة ، أو غير ذلك (٣١) و قد تقدم تعريف السنة عند المحدثين .

و أما عند الاصوليين : فهى ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول
أو فعل أو تقرير .

و أما عند الفقهاء : فهى كل ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن من
باب الفرض و لا الواجب (٣٣) .

أما الحديث باصطلاح المحدثين : فهو "ما أضيف الى النبى صلى الله عليه وسلم
من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خلقى أو خلقى ، و على هذا التعريف لا يدخل فى
التعريف ، الحديث الموقوف و هو ما أضيف أى نسب الى الصحابى ، و لا المقطوع
أى ما أضيف للتابعى ، و هو مذهب الكرمانى والطيبى و من واقفهما ، لكن الجمهور
ذهبوا الى أنهما من الحديث . (٣٤)

فالتعريف المختار للحديث كما يقول شيخنا العلامة الدكتور نور الدين عتر
حفظه الله و نفع به هو : "ما أضيف الى النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو
تقرير أو وصف خلقى أو خلقى ، أو أضيف الى الصحابى أو التابعى ، (٣٥)

بعد أن ذكرنا تعريف السنة و الحديث عند المحدثين ، فما الذى نلاحظه من هذين التعريفين ؟ الذى نلاحظه أن معنى السنة مرادف لمعنى الحديث : ما ينقل عن الرسول صلى الله عليه و سلم و السنة ما كان عليه العمل المأثور فى الصدر الاول ، و قد تقدم هذا .

و لذلك بناء على هذا التفريق ، فقد ترد أحاديث تخالف السنة المعمول بها فيلجأ العلماء حينئذ الى التوفيق و الترجيح (٣٦)

و على ذلك يحمل قول امام الجرج و التعديل عبد الرحمن بن مهدي رح : لم أر أحدا قط أعلم بالسنة و لا بالحديث الذى يدخل فى السنة من حماد بن زيد .

و قوله أيضا عند ما سئل عن سفيان الثورى و الاوزاعى و مالك : سفيان الثورى امام فى الحديث و ليس بامام فى السنة ، و الاوزاعى : امام فى السنة و ليس بامام فى الحديث ، و مالك امام فيهما . و على هذا أيضا يحمل قول المحدثين أحيانا : ” هذا الحديث مخالف للقياس

و السنة و الاجماع ، ، .

و قد ذكر ابن النديم فى فهرسته كتابا بعنوان ” كتاب السنن بشواهد الحديث ، ، (٣٧) و يقول أستاذنا العلامة الخطيب حفظه الله ، ” و ما يدل على أن السنة هى العمل المتبع فى الصدر الاول قول على ابن أبى طالب رضى الله عنه لعبدالله بن جعفر عندما جلد شارب الخمر أربعين جلدة : (كف . جلد رسول الله — صلى الله عليه و سلم أربعين ، و أبوبكر أربعين ، و كملها عمر ثمانين و كل سنة) (٣٨) و قول الامام مالك فى الموطأ ” و السنة عندنا ، ان كل من شرب شرابا مسكرا ، فسكر أو لم يسكر فقد وجب عليه الحد ، ، (٣٩) .

أقول : وقول الامام مالك رحمه الله هذا يؤيد ما ذهب اليه العلامة المندوى من معنى السنة عند الامام مالك بشكل واضح جلي .

فاذا : لو أخذنا بالرأى السائد بين المحدثين ولا سيما المتأخرين منهم ، لرأينا الحديث والسنة مترادفين متساويين يوضع أحدهما مكان الآخر : ففي كل منهما اضافة قول أو فعل أو تقرير أو وصفة الى النبي صلى الله عليه وسلم أو أضيف الى الصحابي أو التابعي .

بيد أن رد هذين اللفظين الى أصولهما التاريخية يؤكد وجود بعض الفروق الدقيقة بين الاستعماليين لغة واصطلاحا ، وقد ظهر لنا هذا أثناء البحث بشكل واضح ومع ذلك فلئن أطلقت السنة في كثير من المواطن على غير ما أطلق الحديث فان الشعور بتساويهما في الدلالة او تقاربهما على الأقل — كما يقول الدكتور الفاضل صبحي الصالح كان دائما يساور نقاد الحديث ، فهل السنة العملية الا الطريقة النبوية التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤيدها بأقواله الحكيمة و أحاديثه الرشيدة الموجهة . و هل موضوع الحديث يغاير موضوع السنة ؟ ألا يدوران كلاهما حول محور واحد ؟ الا ينتهيان أخيرا الى النبي الكريم — صلى الله عليه وسلم في أقواله المؤيدة لأعماله و في أعماله المؤيدة لأقواله ؟ .

حين حالت هذه الاسئلة في أذهان النقاد لم يجدوا بأسا في أن يصرحوا بحقيقة لا ترد : اذا تناسينا موردى التسميتين كان الحديث والسنة شيئا واحدا ، فليقل أكثر المحدثين : انهما مترادفان (٤٠) .

المراجع

- (١) من مقدمة الشيخ العلامة الفقيه محمد أبوزهرة لكتاب السنة النبوية ومكانتها في التشريع للاستاذ عباس متولى حماده . ص/٣ .
- (٢) سورة النحل الآية : ٤٤ .
- (٣) سورة النحل الآية : ٦٤ .
- (٣) النقد في علوم الحديث لا ستاذنا الدكتور نور الدين عتر . ص/١٣ - ١٣ .
- (٥) ص/٤٨
- (٦) لسان العرب (١٧/٨٩)
- (٧) سورة الاسراء الآية : ٧٧
- (٨) رواه مسلم وغيره
- (٩) رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدرى
- (١٠) اصول الحديث لشيخنا الدكتور محمد عجاج الخطيب . ص/١٧
- (١١) أنظر لسان العرب والقاموس المحيط مادة حدث
- (١٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص/٣٩ و علوم الحديث و مصطلحه للدكتور صبحى الصالح ص/٤
- (١٣) قواعد التحديث للشيخ العلامة جمال الدين القاسمى رحمه الله ص/٦٠
- (١٤) علوم الحديث و مصطلحه للدكتور صبحى الصالح ص/٤
- (١٥) ص/٦٠
- (١٦) سورة الطور الآية : ٣٤
- (١٧) ص/٣٢
- (١٨) علوم الحديث و مصطلحه للدكتور صبحى الصالح ص/٤ - ٥ ، و الحديث هذا رواة البخارى فى صحيفه
- (١٩) السنة النبوية و مكانتها فى التشريع للاستاذ عباس متولى حماده، و الحديث رواه الامام مالك فى المؤطا وغيره
- (٢٠) سورة النساء الآية : ١١٥
- (٢١) سورة الشورى الآية : ٥٢ و ٥٣
- (٢٢) سورة الاحزاب الآية : ٢١
- (٢٣) رواه الامام احمد والنسائى و الحاكم وغيرهم .
- (٢٤) تحقيق معنى السنة و بيان الحاجة اليها للعلامة سليمان الندوى ص/٢٠ - ٢١ و السنة النبوية و مكانتها فى التشريع للاستاذ عباس متولى حماده . ص/١٦ - ١٧

- (٢٥) تحقيق معنى السنة و بيان الحاجة اليها . ص/٢١
- (٢٦) ج ١/٦١
- (٢٨) مقدمة الموطا للاستاذ فؤاد عبد الباقي رحمة الله ص/٤
- (٢٩) تاريخ المذاهب الفقهية لمحمد أيوزهرة رحمه الله . ص/٢٣٣
- (٣٠) أصول الحديث لشيخنا الدكتور محمد عجاج الخطيب . ص/١٩
- (٣١) اصول الحديث . ص/١٨ . و أنظر السنة و مكانتها فى التشريع للدكتور مصطفى السباعى رد
ص/٥٤، ٥٥ و كتاب السنة النبوية و مكانتها فى التشريع للاستاذ عباس متولى حملاه ص/٢١ .
- (٣٢) حاشية التلويح على التوضيح للسعد التفتازانى (٢/٢) و ارشاد الفحول للشوكانى . ص/٣٣
- (٣٣) اصول الحديث لا ستاذنا محمد عجاج الخطيب ص/١٩
- (٣٤) منهج النقد فى علوم الحديث للدكتور نورالدين عتر ص/١٩
- (٣٥) منهج النقد ص/١٩
- (٣٦) أنظر أصول الحديث للدكتور محمد عجاج الخطيب ص/٢٥، ٢٦ و تخصيص معنى السنة و بيان
الحاجة اليها للعلامة سليمان الندوى رد ص/١٨ - ١٩
- (٣٧) أنظر علوم الحديث و مصطلحه للدكتور صبحى الصالح ص/٢٦، و أصول الحديث ص/٢٥ - ٢٦
- (٣٨) رواه أحمد فى المسند
- (٣٩) أصول الحديث ص/٢٥ - ٢٦
- (٤٠) علوم الحديث و مصطلحه ص/٩ - ١٠